

## الأثر العام

تكاد تنحصر مظاهر هذا الأثر في أمور أربعة :

الأول : بقاء اللغة هذا الأمد الطويل ؛

الثاني : توحد لهجاتها ، وزوال ما كان فيها من تناكر ؛

الثالث : جعلها لغة رسمية في جميع الممالك التي دخلها الإسلام ؛

الرابع : جعلها لغة تعليمية ، بعد أن كانت ملكة راسخة .

\* \* \*

وتلك كلمة متواضعة عن كل من هذه الأمور الأربعة تشرحه نوعاً

من الشرح ، وتفصله شيئاً من التفصيل :

## بَقَاءُ اللُّغَةِ

يحدثنا التاريخ عن أمم كثيرة ، سادت حتى ملكت . وضعفت

حتى امتحنت ؛ وقد كان لتلك الأمم لغات سايرت حياتها السياسية جنباً

إلى جنب ، وكانت مرآة تنعكس عليها صور وجودها وألوان حياتها .

فرقيت برقيها ، وضعفت بضعفها ثم أصبحت يعرفها التاريخ كما يعرف

الشيء : عفت آثاره ودرست معاملة . فلا يدركه الناس عن طريق وجود

قائم ، وإنما يدركونه من طريق تاريخ متحدث .

فاللغة الفينيقية ، لغة أهل لبنان قديماً ؛ واللغة الآشورية ، لغة أهل نينوى ؛ واللغة المصرية ، وغيرها مما لسانا بسبيل حصره . لا ترى لها ظلاً إلا في بطون الصحف ، وأعماق القبور ؛ طوى الزمن صفحاتها ، وحجرت آيستها على ما كان لأهلها من حضارة رائعة ، ومدنية بالغة . وسلطان عظيم . وذلك أن اللغة . ككل مظهر اجتماعي . خاضعة لقانون النشوء والارتقاء . فهي تقوى وتضعف ، وهي ترقى وتنحط ، ثم هي تحيا وتموت ؛ فإذا رقيت الأمة أو انحطت ، وضعفت أو قويت ، ظهر ذلك في لغتها جلياً واضحاً .

تخضع الأمة لغيرها من الأمم ، فتمتزج بها ثم تفتى فيها ؛ فتحضج اللغة وتمتزج ثم تفتى في لغتها ؛ وقد تخضع اللغة للتغير والتبدل من طريق آخر غير طريق الامتزاج بأمة أخرى ، كأن يهاجر فريق من الأمة إلى موضع . وآخر إلى آخر ، ويرى كل من أسباب العيش ومقتضيات الحياة ما لم يكن يرى من قبل ، وما لا يرى غيره ، فلا يسعهم إلا أن يخضعوا لأحكام البيئات الجديدة ، فيأخذ كل في خلق لغة تناسبه وتتفق مع نوع حياته ، بحكم أنه لا يجد ما يلزمه الحرص على اللغة الأولى ، وقد وجد ما يدفع به إلى هجرها والخروج عنها ؛ ومن ذلك نزول اللغة الأصلية ، وتبقى أثراً من الآثار .

وهذا ما حدث لتلك اللغات التي ذكرنا ، ولغيرها مما يعتبره المؤرخون لغات أثرية — فقد امتزجت أممها بغيرها ، أو هاجر بعضها إلى موطن غير

موطنها ، ففئيت لغاتها في لغات الفاتحين أو تباعدت واختلفت اختلافًا شديدًا ، جعل منها لغات كثيرة لا صلة بينها وبين أصلها الذي عنه صدرت ومنه نشأت .

وليس هذا الذى ذكرنا من أن اللغة تتبع حياة الأمة وتأبى إلا أن تكون صورة لها ، بحيث يمكن - لاختلاف نوع الحياة اختلافًا عظيمًا - أن ينكر بعضها بعضًا إذا لم يكن ثمة ما يحمل الأمة على الاحتفاظ بها والتعرف إليها ؛ نقول : ليس هذا خاصًا باللغات فى القديم ؛ فقد سمعنا وقرأنا ، واثقين ، أن اللغة الفرنسية اليوم غيرها منذ مائة عام أو أقل ، حتى لقد ذكروا أن (لنابلديون) مذكرات تحتاج اليوم إلى من يترجمها للفرنسيين الصرحاء .

وأقرب من هذا وأوضح ، لغاتنا الدارجة ، فهذه اللغة المصرية غير اللغة الشامية ، وهما غير اللغة الحجازية ، مع أنها فى الأصل لغة واحدة ، هى اللغة الفصحى ، أخذت لهجات متعددة ، ورأت أشياء متخالفة ، فتقاطعت لأنها لم تجدها ما يمنعها من التقاطع والاختلاف .

لا شبهة فى أن اللغات تتغير وتتبدل ، ولا شبهة فى أن هذا التغير والتبدل قد يعظم ويتسع ، حتى يجعل اللغة الواحدة لغات كثيرة متباينة ؛ ولكننا إذا نظرنا إلى اللغة العربية رأيناها تطوى هذا الأمد الطويل ، وتقطع تلك المراحل الشاسعة ، وتمتزج مع ذلك بأمم كثيرة ، وتواجه مدنيات شتى يرغم أقلها شأنًا أكثر اللغات غنىً ، على العجز - ثم هى هى ،

لا يكاد يجد الناس بدءاً منهاً ولا منصرفاً عنها، ولا يزيدها كراغداة وممر العشى إلا قداسة وجلالا ، يجعلانها تشبث بالبقاء وتمشى إلى الخلود . ما السرّ إذن فى هذا الشذوذ عما قد خضع له كل ما يعرف الوجود من لغى ؟ وما تلك القوة التى تحوط اللغة العربية وترعاها ؟

لا نستطيع أن نقول إن سر ذلك أنها لغة مدنية فيها كل ما تفتقر إليه الأمم فى كل الأزمنة من ألفاظ ومعان وأخيلة . بحيث يجد الناس فيها كل ما يفتقرون إليه ، فهم لذلك يحرصون عليها ، ويصدون عنها عوادى الزمن ، حتى بقيت لم يمسهها سوء ؛ لا نستطيع أن نقول ذلك ؛ فما نعرف لغة فى الوهم بهذا المكان ؛ ولو أن ممروراً استفرغ قوى مرته لياتى بمثل هذا ما استطاع إليه سبيلا . والواقع يكذب هذا ؛ لأنها أخذت فعلا من غيرها من اللغات فى القديم والحديث ؛ هذا إلى أنها لغة بداوة ، تعرف الصحراء وما يتصل بها من الناقة والبعير ، والضب واليربوع ، والشيح والقيصوم . ولا نستطيع كذلك أن نقول إنها لغة قوم اجتمع لهم من القوة والسلطان فى كل الأزمنة ما يقف إلى جانب تعصبهم لها ويرغم الناس على حفظها ومعالجة أصولها وآدابها على نحو ما تفعل أمم الغرب فى مستعمراتها اليوم ؛ فقد رأينا نفوذ العرب أخذ يضعف فى منتصف القرن الثانى الهجرى ، بل رأينا النفوذ الإسلامى نفسه يضعف حتى تسقط بغداد فى يد التتار وتجتاز الأمم الإسلامىة عصوراً كقطع الليل ، مسلوبة القوة وما يشبه القوة فلا نفوذ ولا سلطان .

وإذا كان لا مناص من التسليم بأنها ليست لغة مدنية على النحو الذى وصفنا ، وأن العرب لم يجتمع لهم فى كل الأزمنة ما يرهب الناس أو يرغبهم فيتوددون إليهم بحذق لغتهم ، وأن الناس أبداً ، إنما يعززون الشيء ويقبلون عليه راغبين أو راهبين ، علمنا أن بقاء تلك اللغة الشريفة إلى اليوم أثر من آثار القرآن الكريم .

ومن الميسور تصور ذلك والإذعان له ، إذا تصورنا ما للقرآن من منزلة سامية فى نفوس أولئك الذين هداهم الله للإسلام ، وخالط حبه — لعدالة مبادئه ووضوح تعاليمه — قلوبهم ، فقد رآه المسلمون ، كما هو فى الواقع ، دستور الإسلام الأعلى ، ومفخرته الكبرى ، فحرصوا عليه ، ووقفوا يبذلون فى الدفاع عنه أعز ما يملكون من دمٍ ومالٍ ، وليس ذلك لأنه جماع الخير حسب ؛ بل لذلك ، ولأن الاحتفاظ به على الصورة التى أنزل عليها يحقق الحكمة من ذلك ، وهى بقاء هذه الصورة الرائعة آية إعجاز ، وبرهان عجز ، فطبعي أن يحافظ المسلمون على ألفاظه وتراكيبه ، لتظل المعجزة باقية على وجه الدهر ، فإن القرآن قرآن بمجموع ألفاظه ومعانيه ، والتعبير عن تلك المعانى بألفاظ غير ألفاظه يخرجها عن الصورة التى نزل بها ؛ وأعجز البشر عليها .

وواضح أن نظر المسلمين إلى القرآن هذا النظر الذى هو فى الواقع مقتضى من مقتضيات الإسلام ، يستلزم أن ينظروا هذه النظره نفسها إلى اللغة العربية ، لأنها المرجع فى حفظه ، والسبيل إلى فهمه : وأن

يعتبروا كل عدوان عليها عدواناً عليه وكل تكريمٍ لها وإشادةٍ بها تكريماًً له وإشادةً به .

ولعل هذا هو سر مهاجمة الإلحاد للغة ومحاولة تنقُصها ، والتشكيك في ماضيها ؛ وعدم الامتعاظ لها والذَّبّ دونها ؛ فقد يرى أن هذا سبيل قريب أو بعيد للنيل من القرآن .

وإذن ، فإن بقاء العربية إلى اليوم ، وإلى ما شاء الله ، راجع إلى الدفاع عن القرآن ، لأن الدفاع عنه — لكونه أصلَ الدين ومستقى العقيدة يستتبع الدفاع عنها لأنها السبيل إلى فهمه ، بل لأنها السبيل إلى الإيمان بأن الإسلام دين الله ، وأن القرآن من عنده لا من وضع النبي وأصحابه . ولو فرضت أنه نزل كما نزل غيره من الكتب المقدسة ؛ حكماً وأحكاماً ، وأمرًا ونهيًا ، ووعداً ووعيداً ؛ ولم يتحرر هذا الأسلوب الذي جاء به ، فلم يعن الناس بلفظه ولم ينظروا إليه قولاً فصلاً ، وبياناً شافياً ، وبلاغة معجزة ؛ لكان من الممكن أن تزول هذه اللغة بعد أن يضعف العنصر الذي يتعصب لها على أنها لغة قومية ، ومن ذلك تضعف هي وتراجع حتى تعود لغة أثرية .

وفي اللغة العبرية ما يؤكد هذا الذي نقول ؛ فإنها — وهي لغة كتاب مقدس — صارت إلى ذمة التاريخ . ولو أن التوراة جاءت كما جاء القرآن فتحدث اليهود على النحو القرآني لاحتفظوا بلغتهم لأن في ذلك احتفاظاً بمعجزة نبيهم ؛ فكان ممكناً أن نرى اليوم لغة موسى عليه السلام .

أثر القرآن

ولكن التوراة لم تعن بالناحية اللفظية ، إذ لا حكمة تدفعها إلى ذلك ، لأن اليهود لم يبلغوا من قوة اللسن ، وحسن البيان ، أن يروا التقصير في ذلك شيئاً له قيمته وخطورته ، كما كان الشأن عند العرب ، حتى تتحداهم التوراة لتعجزهم ، ومن ذلك تلجئهم إلى الإذعان وتحملهم على الخضوع ؛ لذلك لم تعن إلا بالناحية الاختراعية ، فعنى الناس بما فيها من ذلك ينقلونه إلى اللغة التي يريدون ، ويفرغونه في القالب الذي يشاءون ماداموا لاجابة بهم إلى الحرص على الألفاظ .

ومن ذلك اندفعت العبرية تصارع الأحداث الزمنية بما فيها من مناعة ذاتية ، خاضعة خضوعاً مطلقاً لقانون النشوء والارتقاء من غير أن يكون لها سند تركزن في حياتها إليه ، وتعول في بقائها عليه ، فما زالت تنمو وتضعف ، وتلفظ قديماً وتؤوى حديثاً ، حتى وصلت إلى ما يسميه الناس اليوم العبرية ، وشتان ماهي ولغة موسى عليه السلام .

الخلاصة: أن اللغة العربية ، كغيرها من لغات البشر، خاضعة للتغير والتبدل ، وللزوال والفناء ، وأن القرآن الكريم بحكم أنه لسان الإسلام الناطق ومعجزته الباقية ، هو الذي حفظها من الضياع ؛ لأنه جاء على وجه تحدى به العرب تحدياً صارخاً فذلوها واستكانوا فحرص كل مسلم على ألفاظه احتفاظاً بالمعجزة ، وتعبداً بتلاوته ، ولو أنه جاء كما جاء غيره من الكتب مجرداً عن الإعجاز ، لما كان حتماً على الناس أن يلزموا أنفسهم تعهدها والتعرف إليها ، بل كانوا يأخذون مافيه

مما يصلحهم في معاشهم ومعادهم بعد أن ينقلوه إلى لغاتهم فتضطر العربية أن تقف وحدها في معترك الحياة فلا تزال تتطلع إلى التجديد حتى تصبح في مبدئها ونهايتها لغتين أو لغات متباينة ، أو تمشي إلى الموت وتدب إلى الفناء ، حتى تصبح في ذمة التاريخ .

## تَوَحُّدُ لَهْجَاتِهَا وَزَوَالُ تَنَاطُرِهَا

للرب لهجات كثيرة متباينة ، منها الرديء المستكروه ، تعزف عنه النفس ، وينفر منه الطبع ، ومنها الفصيح المقبول ، يحسن وقعه في السمع ويخف نطقه على اللسان ؛ شأن الأمة ، يقترب بعضها من حياة الحضارة ويظل محتفظاً بـمميزاته الخاصة ، فيكون له من ذلك ذوق ولطف حسن ، ويبقى بعضها حيث هو ، لا تأخذه عين المدنية فينشأ على مانشأته عليه حياة الحشونة والجفاف ، وذلك يظهر أثره في تلك اللهجات الحشنة الجافة التي لا تكاد تسيغها الأسماع .

ولا أعنى أن منشأ تخالف اللهجات على هذا النحو ، إنما هو القرب أو البعد من الحضارة فحسب ؛ فإن لطبيعة الإقليم أثراً قويا في هذا ؛ يدرك ذلك واضحاً من ينظر في لهجات الأمم في مختلف أنحاء الأرض ، فهذا الغربي يستشرق ، وله لهجته الخاصة ، وقد يكون أعرف بالعربية من كثير من أهلها ثم لا يستطيع أن ينطق بالكلمة على نحو مقبول ، بل هو لا يستطيع أن ينطق ببعض حروف خاصة فيها ولو أكره نفسه على ذلك

إكراها شديداً . ثم هناك العلل الطبيعية ، وسوء السمع ، وسوء الأداء ،  
تنحرف باللهجة عن مواقع القبول ، فيأخذها السامع كذلك : ومع طول  
علاجها لها ، ومرانته عليها ، يألفها فلا يعدل عنها ، لأنه يرى في ذلك  
ما يرى الناس في العدول عن الشيء ألفوه ، من نبوءة وخرابة .

ولم يعن العلماء بجمع هذه اللهجات المتخالفة فهي مشورة في  
كتبهم حيث يطلبها الشاهد في عرض كلامهم ؛ لأنهم لم يحاولوا وضع  
تاريخ للغة يصف الأدوار التي مرت بها ، والأطوار التي تقلبت فيها ،  
وقد يكون خير كتاب جمع قدرًا صالحاً من ذلك ، تاريخ آداب العرب  
لأبي السامى ؛ فمن ذلك : « الكشكشة » وهي في ربيعة ومضر . وقد تروى  
لأسد وهوازن ، ويروى ابن فارس أنها لأسد - يقولون : مررت بكِش ؛  
يعنون بك في الوصل والوقف أو في الوقف فحسب . وبعضهم يقول  
بِش ، وصلاً ووقفاً ، على أنهم لا يتقيدون بكاف المؤنثة أحياناً فيقولون  
الكاف في الخطاب مطلقاً شيئاً ، وأكثر من هذا أنهم قد يقلبونها شيئاً  
وإن لم تكن للخطاب !

قرأ ابن جنى على أستاذه :

علىّ فيما ابتغى أبغيشِ  
وتطلبى ودّ بنى أبيشِ  
وإن نأيت جعلت تدنيشِ  
حيّ تنقى كنعيق الدبشِ  
بيضاء ترضيني ولا ترضيشِ  
إذا دنوت جعلت تنيشِ  
وإن تكلمت حثت في فيشِ

يريد الديك ، فشبه الكاف لكرتها بكاف المؤنث .  
ومن ذلك « الكسكسة » لربيعه ومضر . ولغيرهما على خلاف في ذلك  
وهي جعل السين في خطاب المذكر بعد الكاف أو مكانها .

ومنها « الششنة » في لغة اليمن . يجعلون الكاف شيئاً مطلقاً :  
يقولون : لبَّيشَ اللهم لبَّيشَ . في لبَّيك .

ومنها « العنعة » في لغة تميم وقيس ، يجعلون المحذرة المبدوء بها عيناً ،  
يقولون : عِدَنَ أكرمك في إذن أكرمك .

ومنها « الفحفحة » في لغة هذيل يقولون : عَمَّاتِ العَمَيَّاة لكل عَمَى .  
يريدون : حَلَّاتِ الحياة لكل حَى .

وتسمع الراجز من فقيم يقول :  
خالى عويف وأبو علجَّ  
المطعمان اللحم بالعشجَّ  
يريد عليّاً والعشى ، ويقول :  
يا رب إن كنت قبلت حجتيج  
فلا يزال ساجح يأتيك بيج  
يعنى : حجتي ، ويأتيك بي .

ومثل هذا وغيره كثير ، لا حاجة بنا إلى استقصائه . فحسبنا أن  
ذكرنا ذلك ، لأن الحاجة تدعو إلى ذكر القليل منه على أنه إشارة إلى  
دليل هذا الاختلاف الذى نحن بصدد الحديث عنه .

هذا ، وكما اختلفت اللغة من حيث هيئة النطق وما إليه مما يسمى  
اللهجة ، اختلفت من حيث معانى الكلمات ، فتدل اللفظة عند قوم على

معنى لا تدل عليه عند آخرين .

ذكر صاحب الزهر : أن زيد بن عبد الله بن دارم ، وفد على بعض ملوك حمير ، فألفاه في متصيد له على جبل مشرف ، فسلم وانتسب ، فقال له الملك : ثب ، فقال : ستمجدني أيها الملك مطواعاً ، وأتق نفس من الجبل فهلك ، ولم يرد الملك إلا أن يقول له اجلس : ففهم ذلك بلغته وهي بمعنى القفز كما رأيت !

وأصدق من هذا ما روى ، أن أبا هريرة لما قدم من دوس عام خير لقي النبي عليه السلام وقد وقعت من يده السكين ، فقال ناولني السكين ، فالتفت يمناً ويسرة ولم يفهم مراده ، فكرر له القول وأشار إليها فقال : ألمدية تريد ؟ فقال : نعم ، قال : أو تسمى عندكم سكيناً ؟ ثم قال : والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ !

ممكّن أن يعزى ذلك إلى تقاطع العرب ، لانعدام أسباب الاتصال المادية والمعنوية بينهم ، أو على الأقل يكون هذا من جملة الأسباب التي أدت إلى هذا الاختلاف .

وقد ينصر ذلك أن نرى الأمة المصرية قبل أن تمهد فيها وسائل الاتصال على النحو الذي نرى ، كانت متقاطعة ، وكانت لغتها مختلفة هذا الاختلاف أو أشد ، فقد كان بعض ألفاظ هذه اللغة الدارجة عند أهل الصعيد يحمل معنى مقبولاً ، في حين أنه يحمل عند غيرهم معنى قبيحاً منكرأ ، ولا تزال لهجتهم خشنة جافة ، إذا قيست بغيرها من اللهجات الأخرى !

لا سبيل إلى إنكار تناكر العرب قبل أن يمهد لهم الإسلام هذا التعارف العظيم ، والتقارب الشديد .

ولئن كانوا قد كانت لهم لغة أدبية راقية يتحرونها في المواقف التي يطلبون فيها الإجابة وأن يكون قوهم أسير ، حتى كان من نتائج ذلك أننا لا نرى أثرًا لاختلاف اللهجات فيما وصل إلينا من شعر جاهليّ على ما يراه بعض الباحثين في الشرق والغرب ...

نقول : لئن كانوا قد كانت لهم لغة على النحو الذي ذكرنا ؛ إنها لم تشمل عرب الجنوب كما شملت عرب الشمال ، بل إنها لم تشمل كل عرب الشمال ؛ لأن الشعراء آحاد معدودون في كل أمة بالقياس إلى سائرهم ، ثم إن لُجُوءَ الشعراء إلى تلك اللغة الأدبية الواحدة لم يكن في كل الأحيان ، بل كان حيث يطلبون لشعرهم أن يروى ، ولقوهم أن يسير فإذا صدروا عن الأسواق وما إليها ، مما يجتمع فيه العرب من شتى القبائل ، لم تعد بهم حاجة إلى تكلف لغة غير لغتهم ، فانصرف كل إلى لغته الخاصة .

على أن بعض الباحثين ينازع في أن تكون ثمة لغة واحدة يعالجها الشعراء على النحو الذي سلف ويقول : لو كان يمكن أن يتكلف العربي لهجة غير لهجة قبيلته ، لكان كتاب الله أحق بأن ينزل العرب عن لهجاتهم ليقروه على ما جاء به في لهجته القرشية ؛ ولكان النبي عليه السلام يمتعض لقراءته بغيرها إذ كانت هي أعذب اللهجات ، وإذ كانت ممكنة لا تفضي إلى حرج ؛ وإذ كان القرآن بها أشد أسراً ، وأسحر سحرًا ؛ ولكن

الثابت الذى لا ينكر أنه عليه الصلاة والسلام ، أقرّ القلريين بلهجاتهم ؛ ولم ينصر عمرَ ، وقد أمسك بتلابيب رجل من العرب ، سمعه يقرأ بما أنكره ، بل لم يكتف . صلى الله عليه وسلم ، بذلك وقال : أنزل القرآن على سبعة أحرف .

وعلى هذا وذاك . فقد بقى التناكر والاختلاف فى اللغة بين عامة العرب حتى مجيء الإسلام .

نزل القرآن باللغة القرشية ، ولم يؤثرها على غيرها عبثاً . فقد كانت سهلة واضحة . وعذبة مبيّنة . روى صاحب الإتيقان أن « الواسطى » قال فى كلام له :

« . . . . . لأن كلام قريش سهل واضح . وكلام العرب وحشىّ غريب .»

ويعلل الباحثون سهولة لغة قريش وعذوبة لهجتهم . بأنهم كانوا ينتقون من لغات الوافدين عليهم - وهم كثير لمكانة قريش الدينية والاقتصادية - ما عذب لفظه وخف وقعه . وقد خلقت لهم حياة التحضر التى كانوا يحيون ، ذوقاً ولطف حسّ أفضيا بهم إلى حسن التخيير حتى صارت لغتهم المثل الأعلى لسائر العرب لما فيها من عذوبة وجمال . ولما لهم من سيادة ونفوذ .

وواضح كل الوضوح أن القرآن إنما آثرها لذلك . ولحلوها من هنات كانت لغيرها . بل لفضلها اللغات جميعاً لطف أداء . ووضوح مخرج ، ثم لأنها أوسع اللغات يومئذ انتشاراً فى الجزيرة العربية ، أو لأن الناس على

الأقل يقبلون عليها ويستريحون إليها أكثر من سواها . ويكون انطباعهم عليها أشد وأسرع .

وأياً ما كان فتمد حاول العرب الاقتراب منها . وودوا لو أن ألسنتهم انطبعت عليها حين رأوا هذا القرآن يزيد لها حسناً . ويفيض عليها عذوبة . وحين سمعوه فسمعوا به ما فعل بهم فعل الخمر ، وأثر فيهم تأثير السحر ، والعربي بطبعه . يطرب لحسن النظم ويرتاح بحملي البیان ، فيدفعه ذلك — وهو حريص على أن يحرز ما يعجبه أو شيئاً منه — إلى التأسى به ومحاوله السير على نهجه . فيروض لسانه حتى يستقيم له ما يريد .

ثم إن القرآن خلق للعرب جامعة دينية سياسية حفزتهم إلى التعارف والاختلاط . في المساجد والنوادي ، ومواقف الحروب في الجزيرة وغير الجزيرة ، وقد استحكمت حلقات الوحدة العربية بهدايته . وكان أكثر القائمين بالدعوة إلى تلك الهداية ممن ينطقون باللغة التي نطق بها القرآن ؛ وذلك — مع أن القرآن كان متلوّاً بكل لسان تعبدّاً به أو تأثراً بفصاحته ، أو نظراً في أحكامه . أو طلباً لمعارضته — من شأنه أن يذهب بجانب عظيم من تناكر اللغات واختلاف اللهجات .

ولما خرج الإسلام من الجزيرة إلى العراق والشام ومصر وسائر الممالك التي افتتحها المسلمون . ودخل من أهل تلك الممالك ، الكثير في دين الله ودخلوا كلهم في طاعته وتحت حكمه ؛ تعلموا اللغة لأسباب مختلفة ، بعضها ديني وبعضها دنيوي ، ومن غير المعقول أن يعالجوا غير لغة القرآن

فزال الاختلاف ، ورجعت اللهجات المستكرهه بقايا أثرية ، تروى ، إن رويت ، على أنها شاهد أو دليل ؛ ثم تلا ذلك عصر التدوين ، فدونت اللغة غير منظور إليها إلا على أنها لغة أمة من الناس سودها الإسلام ، ووحدتها لغةً ودينًا وغايةً ؛ وبذلك التأم صدع اللغة العربية ، واجتمع شتيتها في لغة العبادة والقراءة والكتابة ، وأصبح من الممكن أن يتفاهم العرب وغير العرب بلغة واحدة فصيحة ، وطهجة واحدة عذبة ، لا يستغصى على أحد فهمها ، ولا تروعه عنجهيتها ، فلا يعدل أحد عن طريقها .

### جَعَلَهَا لِسَانَ الدَّوْلَةِ الإِسْلَامِيَّةِ

لم تكن أمة من الأمم قبل الإسلام باللغة العربية ، تعالج آدابها ، وتتعرف تاريخها ، فضلا عن أن تهتم لها فتتخاطب بها أو تتفاهم عن طريقها ؛ لأن العرب لم يكونوا الأمة التي يغرى مركزها السياسى أو الدينى أو الاجتماعى بالتحجب إليها والاتصال بها حتى يستتبع ذلك أن تتصل بلغتها تستعين بها على تقوية أواصر الألفة ، وتوثيق عرى الصداقة بينها وبينها ؛ ولأن اللغة العربية لم تكن لغة علوم ومعارف ؛ لأن اللغة على ما هو مقرر ثابت صورة حياة أمتها ، ولم تكن الأمة العربية أمة علم ومعرفة ، فلم يكن فيها ما يحمل الأمم على معرفتها حتى يستفيدوا علماً أو معرفة ؛ ثم لأن العرب كانوا يحقرون غيرهم من الأمم حتى يستنكروا الإصهار إلى غير عربى ، ويسموا ابن العربى من غير العربية هجيناً لا تستساغ مساواته بالصریح

في الحقوق والمعاملات ، كما يسمون ابن العربية من غير العربي مرفقاً .  
وقد ظلت هذه النعرة فيهم إلى ما بعد الإسلام ، إلا قليلاً ممن فقهوا  
الإسلام وفهموه على وجهه الصحيح !

ذهب أعرابي إلى « سوار » القاضي ، فقال : إن أبي قد مات ،  
وتركني وأخسأ لي ، وخط خطين ناحية ، ثم قال : وهجيناً لنا ، وخط خطأ  
ناحية ، ثم قال : كيف ينقسم المال بيننا ؟ فقال : المال بينكم أثلاثاً إن  
لم يكن وارث غيركم ؛ فقال له : لا أحسبك فهمت ؛ إنه تركني وأخى ،  
وهجيناً ، فقال سوار : المال بينكم سواء ، فقال الأعرابي : يأخذ الهجين  
مثل الصريح ؟ قال : أجل ! فغضب الأعرابي وقال : إنك لقليل  
الحالات بالدهناء !

هذا الأعرابي ومثله ، وهم كثير ، لم يتأثروا من غير شك بتعليم  
الإسلام فهم يمثلون النزعة العربية الجاهلية أصدق تمثيل . وإذا كان  
العرب يحملون هذا الشعور بالنسبة إلى الأمم الأخرى ، فإن هذه الأمم  
لا تقل عنهم شأنًا في ذلك إن لم تكن فيه أبعاد أثراً ؛ فإن الحضارة أبداً  
تنظر إلى البداوة نظر هزء وسخرية واستخفاف !

وقد ظهرت هذه النزعة من جانب غير العرب ، حتى في الوقت الذي  
تحضروا فيه ، ومظهر ذلك ، هذا الشعر الذي ظهر في العصر العباسي ؛  
يفضل غير العرب عليهم ، وهذه الشعبية التي بلغت أشدها إذ ذاك  
تقتنص العرب وتغض من أقدارهم .

يقول شاعر فارسيّ يفتخر بقومه ويعرض بالعرب :

بهاليل غرٌّ من ذؤابة فارس إذا انتسبوا، لا من عرينة أو عكل  
هم راضة الدنيا . وسادة أهلها إذا افتخروا . لا راضة الشاء والإبل  
فأنت تراه قد رفع شأن الفرس . وقال إنهم ساسوا الدنيا . وملكوا  
أزمتهها . في حين أنه تنقص العرب ورماهم بأنهم رعاة إبل وشاء . ليس  
لهم مما يعتز به الناس سوى ذلك . وهو شيء تافه حتمير إذا قيس بعزة  
الملك وجلال السلطان .

هذا الشعور المتبادل بين العرب وغير العرب . ثم كونهم لا يغرى  
مركزهم بالاتصال بهم . والتقرب منهم . والتودد إليهم ؛ ثم كون اللغة  
العربية ليست لغة علم ومعرفة . . . كل ذلك جعل اللغة تقبع في جزيرتها .  
فلا تبحرهما إلا لتعود إليها . مع أولئك الذين كانوا يشتغلون بالتجارة . أو  
تلجئهم أسباب حياتهم إلى الاختلاط المحدود بالفرس والروم ؛ وذلك شيء  
مهما كان شأنه لا يمهد للغة العربية سبيل الظهور في غير البيئة العربية .  
وقد ظلوا كذلك . حتى جاء القرآن الكريم . يحمل أسمى ما تعرف  
البشرية من مبادئ وتعاليم . فحرض العرب أشد التحريض على هداية  
الناس وإرشادهم . فاندفعوا . والموت أحب إليهم من الحياة . يغزون الأمم  
ويفتحون الممالك . حتى خضع لهم العالم ، وملكوا من حدود الهند والصين ،  
إلى جبال البرانس من أسبانيا . حتى رأينا المأمون يخاطب السحابة فيقول :  
« سيري أنسى شئت ، فستمطرين لي ذهباً » .

ومما لاشك فيه أن أولئك الفاتحين كانوا كلما دخلوا أرضاً، دخلتها اللغة معهم ، لها من السيادة على لغات الأمم المفتوحة ما لم هم فيها من سمو منزلة وعزة مكانة ، فدخلت العراق ، والشام ، ومصر ، والسند ، وبخارى ، وخوارزم ، وسمرقند إلى كاشغر ، وبلاد الأندلس وبلاد المغرب من برقة وتونس والجزائر إلى مضيق جبل طارق ؛ فخرجت بذلك من محبس طال لبثها به ، ومكثها فيه ، وتضعض أمامها لغات الأمم المفتوحة على الرغم من أن بعضها ، كاللغة الفارسية كان لغة حضارة ، فيها ما يفتقر إليه المسلمون في حياتهم الجديدة السياسية والاجتماعية ؛ حتى لم تجرؤ لغة على الوقوف إلى جانبها وبقيت هي اللغة الرسمية لسائر الممالك الإسلامية .

لم تكن سيادة اللغة وانتصارها هذا الانتصار الرائع ، من طريق الإرغام ؛ وإنما انساق الناس إليها بدافع الدين ، أو الدنيا ، أوهما معاً ، وذلك أن جمهرة هذه الأمم التي بسط الإسلام عليها نفوذه، قد دخلت في دين الله ، وأخلص كثير منهم في إسلامه، إذ رأوا فيه مبادئ واضحة وعادلة ، يسيغها العقل ، وينصرها المنطق ، فلا جرم ، كان من الطبيعي أن يقصدوا إلى فهمه ، وتعرف أسراره، والإمام بما فيه من حكم وأحكام، والقرآن كما رأينا ، دستور الإسلام ، وهم لن يفهموا هذا الدستور الكريم ولن يقوموا ببعض الشعائر فيه إلا إذا أقبلوا على لغته يتعلمونها، ويحاولون حذق أصولها . وكذلك ما كانوا يرون من أن التفاهم مع ولاتهم من العرب موقوف على تعلم العربية ، ثم هؤلاء الخلفاء وعمالمهم يجزلون العطاء لمن يجود شعراً أو نثراً

ويقرّبونهم إليهم ويولونهم مناصب في الدولة ؛ كل ذلك كان له أثر أى أثر في إقبال الناس على اللغة . حتى إن الرجل ليدفع بابنه إلى تعلمها ، رجاء أن يجني ثمرة ، أو يحرز جاهاً . والذي يرى استباق الشرقيين اليوم لتعلم لغات المستعمرين وآدابهم ، لأن في معرفتهم ذلك خيراً يرجونه وجاهاً يؤملونه أو لذة يقصدون إلى تحقيقها والوصول إليها - يدرك في يسر كيف كانت الأمم تتسابق إلى تعلم العربية ، وشد وأروع آدابها .

هما إذن أمران لكل منهما أثره الخاص في نشر اللغة ، وتوسيع نفوذها :

أولهما : محاولة الناس فهم القرآن ومعرفته أحكام الدين ؛

وثانيهما : الحاجة إلى التفاهم مع الولاة والحكام والتقرب إليهم رجاء

منفعة دنيوية .

وكلا الأمرين دفع إليه ، ومهد له القرآن الكريم ، فلولاه لبقيت اللغة محبوسة في جزيرتها ، لا تتسلط على أمة ، ولا تهيمن على شعب ، ولسنا هنا بسبيل الفرض والتقدير حتى نسمع ما يقولون : لو تحضّر العرب فلكوا ، لخرجت لغتهم معهم ؛ فإِنما نبحت أمراً وقع ، وهو أن القرآن هو الذي أخرج العرب فعلاً . وشق لهم طريق المجد ، ومهد للغتهم سبيل السؤدد .

على أننا لا نستطيع أن نسلم بأن في مقدور العرب - وهم على ما كانوا عليه مما كان سيفضى بهم حتماً إلى الفناء - أن يتألفوا ويتفاهموا ، وي طرحوا ما فيهم من غرائز تأبى عليهم الخضوع والانقياد كل الإباء ،

ثم يتحضروا ويشيدوا ملكاً يبقى ولو قليلاً ، فى مأمَنٍ من خطر تنافسهم وحبهم للسيادة والرياسة ، وإنى لمؤمن الإيمان كَلَّه بأن فى القرآن سرّاً ، إليه يرجع ما ظهر فيهم من خضوع للقيادة العليا ، وإغضاء عن دواعى ما فيهم من حسد وأنفة ، حتى استطاعوا أن يدحروا جيوش فارس والروم ، فقد وجههم الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم ، وجهة استولى عليها هذا السر القرآنى وهو الذى ألان من قناتهم وجعلهم ينصرفون عن كل شىء إلا عن الوقوف عند أحكامه ، والأخذ بمبادئه وتعاليمه ، وهو الذى أنام فيهم طبيعة المنافسة ، وقتل حب الرياسة ، فعملوا وكانت غايتهم من كل أعمالهم منفعة الأمة لا منفعة الفرد ، حتى إذا لاح لهم شبح الدنيا ، وتعالى بنو أمية عن النظر إلى هذا السر القرآنى العظيم ، انصرفوا من القتال لله ، إلى القتال للشهوات ، ومن ثم انصرفوا عن قتال الأعداء إلى قتل الأولياء .

القرآن إذن ، هو وحده الذى أعدهم لأن يملكوا ، فهم من دونه لا يستطيعون أن يؤسسوا ملكاً ، بل لا يستطيعون أن يحفظوا ملكاً ؛ وهذه أسبانيا ، وتلك بغداد ، تحدثنا عن ذلك حديثاً كله منطوق وكله إقناع .

ولست أعنى أنهم جبناء أو ضعاف ؛ وإنما أعنى أنهم فى سبيل الرياسة ، وتنازع السيادة ، لا يحفلون بشىء ولا يقدرون عاقبة ، حتى كأن الشاعر إنما يعينهم إذ يقول :

اقتلونى ومالكاً واقتلوا مالكاً معى

فهل مثل هؤلاء يصلحون لبناء ملك وإقامة سلطان ، إلا إذا قام عليهم وأدبهم القرآن ؟ !

ولنسلم في كثير من التسامح وبعد لأى شديد ، أن يتناسى العرب ما بينهم من أحقاد طاحنة ، وما فيهم من غرائز مردية وأن يخرجوا من صحرائهم ليؤسسوا ملكاً يقوم بنيانه ، وأن تسود في حنايا هذا الملك لغتهم بعد أن يرغم الناس عليها إرغاماً ؛ ولكن الذى لا سبيل إلى التسليم به أن يملكوا معظم الدنيا ، وأن تستبد في هذا الملك العريض لغتهم وهى لغة نشأتها الصحراء ، وأن يبقى لهذه اللغة نفوذ ، ويمتد لها ظل بعد أن تدول دولتهم ويزول سلطانهم فلا يملكوا الدفاع عنها ، بل حمل الناس قسراً عليها !

لقد رأينا النفوذ الفارسى ثم التركى يسيطر في منتصف القرن الثالث الهجرى ، على كل شىء في الدولة بما في ذلك اللغة ، وتيقظت العصبية الفارسية للغة الفهلوية ، وقد ذل العرب بعد ذلك ، ولم يبق في أيدهم من السلطان ، إلا ما يبقى في كف القابض على الماء ؛ ومع ذلك ظلت اللغة تدفع عن نفسها ، وتعلن عن وجودها ، في شىء من الضعف ، خضعت به خضوعاً محدوداً لما كانت ترى به من عصبيات متوترة ، وجهالات حمقاء ؛ ونقول خضوعاً محدوداً ؛ لأننا نعتقد أنها لو خضعت الخضوع المطلق لِمَا انتابها من شدائد ومحن ، ولم تعتز بكتاب الله ، وتحيا في رعايته لوجب أن لا يكون لها اليوم أثر في غير جزيرة العرب .

لم يكن في وسع العرب إذن ، لولا القرآن ، أن تصل لغتهم إلى ما

وصلت إليه من النفوذ والقوة ، ومن السعة والانتشار ؛ إما لأنهم ليست فيهم الدوافع إلى ملك ، فضلاً عن ملك عظيم ، وأن نوع حياتهم الذى كانوا يحيون كان سيسلمهم إلى الفناء والهلاك ؛ وإمّا لأنهم لو أتيح لهم ذلك على افتراض إمكانه لخضعوا لما تخضع له الأمم من الضعف والاضمحلال ، ثم للفناء والزوال ، ثم تراجع لغتهم إلى الجزيرة .

ولعل فى اختفاء اللغة التركية ، بعد ضياع نفوذ الأتراك من رقعة الدولة الإسلامية فى المشرق والمغرب ، وقد كانوا حاولوا تسويد لغتهم وجعلها لغة رسمية - لعل فى هذا ما يؤيد هذا الذى ذكرنا .

وجملة القول ، أن اللغة العربية ما كانت تطمح فى أن يتعدى سلطانها جزيرتها ، فتضرب الذلة على لغات نمت فى أحضان الحضارة وترعرعت بين سمع المدينة وبصرها ؛ وتستأثر دونها بالمكان الأسمى فى ممالك ما كان العربى يحلم أن يحيا بها ، فضلاً عن أن يكون السيد المتصرف فيها ؛ ولكن القرآن الكريم انتزعها من أحضان الصحراء ، وأتاح لها ملكاً فسيح الأرجاء ، تأخذ منه لألفاظها ومعانيها ، وأغراضها وأسلوبها ، مالم تمكنها منه حياتها البدوية فبعد أن كانت ثروتها فى حدود بيتها ، أصبحت غنية فى كل فنون الحياة ، فأقبل الناس عليها ، وانصرفوا إليها مدفوعين بالحاجة إلى التفاهم مع أوليائهم من العرب ، وإلى معرفة أحكام الدين ، وأداء واجبات الإسلام .

أثر القرآن

## جعلها لغة تعليمية

كان الصواب للعرب في لغتهم - إعراباً وبلاغة - أمراً يستندون في تحصيله إلى السليقة، فلم يكونوا يجرون في إقامتهم كلامهم، وتحريمهم إعرابه، وتخيرهم أساليبه، على قواعد خاصة، وقوانين يوقفون عليها، بحيث يصدر عنهم ما يصدر من قول ملاحظاً فيه تلك القواعد وهذه القوانين: ولست بنحوى يلوك لسانه ولكن سليقاً أقول فأعرب وقد اختلف العلماء قديماً وحديثاً في مقدار تمكن العربي من لغته؛ فذهب فريق إلى أن العربي يجري في لغته على الفطرة والطبع فهو لا يزيغ ولا يطاوعه لسانه إذا قصد أن يزيغ . . .

وذكروا لذلك ما رأوا أنه يؤيدهم فيما ذهبوا إليه: فن ذلك مسألة « كنت أظن العقرب أشدّ لسعاً من الزنبور، فإذا هو هي » فقد ذكروا أن سيبويه أنكر « فإذا هو إياها » وأجازة الكسائي، فاحتكما إلى أعرابي فقضى لسبويه أن لسان العربي لم يطاوعه فيقول: « فإذا هو إياها ». وإن كان قد انتصر للكسائي كما تقول إحدى الروايات، فذلك تدليس، لأن أنصار الكسائي لما رأوا أن العربي لا يستطيع النطق بما أنكر سيبويه؛ اكتفوا بأن تطرح المسألة على مسامعه، فيقول: الحق مع الكسائي؛ دون أن ينطق العبارة كما أرادها الكسائي، واكتفوا منه بأن

يقول : رأى الكسائي صحيح !

ومن ذلك ما نقل عن أبي حاتم السجستاني أنه قال : قرأ عليّ أعرابيّ :  
طبيبي لهم وحسن مآب ؛ فقلت له طوبى ، فقال : طبيبي ، فأعدت وقلت  
طوبى ، فقال طبيبي ، فلما طال عليّ ، قلت : طو ، طو ، فقال :  
طى ، طى !

ومثل هذا كثير ، يرويه العلماء شاهداً على أن اللغة العربية عند  
العرب طبيعة راسخة ، وجبلة ثابتة .

وذهب فريق آخر إلى أن اللغة في كل أمة من قبيل الملكات لا من  
قبيل الطبائع ، فإذا حاول العربي أن يلحن لحن ، وإذا تعمّد الزبيغ زاغ ،  
وقد اشتدّ ابن خلدون في الرد على الفريق الأول حتى رماه بشراً الأوصاف  
وذلك حيث يقول :

« . . . . . فإن الملكات إذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت  
كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل ؛ ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم  
يعرف شأن الملكات ، أن الصواب للعرب في لغتهم إعراباً وبلاغة ، أمر  
طبيعيّ ، ويقول كانت العرب تنطق بالطبع ؛ وليس كذلك ؛ وإنما هي  
ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت في بادئ الرأي أنها  
جبلة وطبع . . . . . »

وفي الحق أن أولئك العلماء قد أبعدوا في الغلو ، إذ قالوا ما قالوا ، -  
وذلك شأن كثير منهم - في اللغة العربية وكل ما يتصل بهذا الجليل من

الناس ، يحاولون أن ينسبوا إليها كل ما يظنون أن فيه فضيلة ، وإن كان من البعد والشذوذ بحيث لا يدل عليه دليل ، أو بحيث لا يمكن أن يدل عليه دليل ، ومن هذا ما نراه لعالم جليل ، هو « ابن فارس » من أن اللغة في كل مظاهرها بتوقيف من عند الله تعالى ، بل لقد زعم أن العرب العاربة ، كانت تعرف النحو والعروض بمصطلحاتها بتوقيف من قبلها حتى ينتهى الأمر إلى الله !!!

وما أشك في أنني لم أقتنع بما يذهب إليه هؤلاء . ولا بما أوردوه ويوردونه ، مما يقولون إنه حجة أو دليل .

فسألة سيبويه موضوعة مختلقة ، اختلقتها العصبية التي بلغت شأواً عظيماً بين البصريين والكوفيين يومئذ .

ومسألة أبي حاتم ، ليست أقل تخاذلاً وسقمًا ، وحسبى أن أذهب إلى صبيان المكاتب لأرى صبيًّا يلقنه المعلم : يستبشرون ؛ فلا يستطيع النطق بها على حين أن الصبيان من حوله يرددونها في يسر وسهولة ، وكلهم نشأ معه في بيئته ، وبعضهم يمت إليه بسبب ويلتقى معه في نسب . فلعل هذا الأعرابي صاحب أبي حاتم كان من أولئك الذين تتحكم فيهم العادة ويهيمن عليهم الإلف ، إلى حد أنهم لا يستطيعون الخروج من سلطانه ؛ وهكذا كل ما يحاول أولئك الغلاة أن يثبتوا من طريقه أن اللغة طبيعة ، لا يبعد أن يكون عنه محيص ومنه مخرج ؛

لا ريب أن كون اللغة ملكة أقرب وأشبه ، وأولى بالقبول ؛ على أن

هذا الخلاف في ذاته لا يعيننا بمقدار ما تعيننا نتيجه التي نقصدها في هذا الموضوع ، وهي أن اللغة العربية — إعراباً وبلاغة — لم يكن العرب يستعينون على تحصيلها والوصول إليها من طريق قواعد معينة وقوانين مخصوصة ؛ كان الصبي ينشأ بين قومه فيسمعهم يتخاطبون فيحدث لأساليبهم وتراكيبهم في نفسه أثر ، ثم يتكرر ذلك فيزيد هذا الأثر ، ويزيد التكرار فتحديث له صفة راسخة في نفسه ، هي ما يسمى الملكة ، وهذه الملكة تجعله ينطق بالصواب وإن لم يقصد أن ينطق بالصواب ، بل أكاد أقول إنه إذا قصد النطق الصائب جرّه ذلك إلى الخطأ على ما هو الشأن في الأعمال المنعكسة والأعمال العادية ، وليس ببعيد أن تكون الملكات من هذا القبيل .

وما أظن أن أحداً يخالف في ذلك؛ وعليه فما مظهر أثر القرآن في ذلك؟ وواضح أن الملكة اللغوية من الناحيتين : الإعرابية ، والبلاغية ، خضعت للصناعة ذات الأصول والقواعد الخاصة ؛ فالتكلم يلاحظ مواقع بعض الكلم من بعض ، ويستعين على معرفة ذلك بمصطلحات خاصة تكفل بشرحها وبيانها علم النحو ؛ والبليغ يدرس الأساليب العربية ، وينظر في معاني المفردات اللغوية حتى يتأتى له الذوق الخاص .

وقليل أو نادر ، أو متعسر ، أن يداني في ذلك عربياً نشأته الصحراء؛ لمكان العجمة وما يحدثه الاختلاط من أثر في نفوس المستعربين ، ولهذا رأينا الخلفاء يذهبون بأبنائهم إلى الصحراء حتى يتلقوا هذه الملكة ،

لا تعدو عليها عجمة ، ولا تزاحمها لكنة ، حتى إن الوليد بن عبد الملك مع أنه عربي كان كثير اللحن ، لأنه لم يغترف لغته من ينبوع العربي الصحراوي .

وعلى الجملة ، ضعفت الملكة العربية في أولئك الذين تحضروا وتركوا حياة الصحراء ، بالقياس إلى غيرهم ممن لم يلبس حياة التحضر ؛ وأشفقوا من الضعف والتخاذل حتى قال عبد الملك بن مروان وهو من هو : قد شيبني ارتقاء المنابر وتوقع اللحن ؛ وهذا يدل على أن القوم يومئذ قد أنسوا من أنفسهم شيئاً من الضعف فإن هذا القول لا يسمح به عربي جاهلي أو آخر عاش في صدر الإسلام .

فأما العرب في جزيرتهم فقد ظلوا محتفظين بملكاتهم إلى أواخر القرن الرابع ، لبعده العجمة منهم ، وزهدهم في أن يفارقوا جزيرتهم ؛ ثم فسدت ملكاتهم أيضاً لكثرة ترددهم على الحواضر ، ولشدة اختلاطهم بالحجيج من أمم معرقة في العجمة ؛ ولا يعرف للملكة العربية الخالصة بعد ذلك مكان إلا في « عكاد » جبل باليمن ، قد ظل أهله يتكلمون اللغة العربية الفصيحة حتى القرن الثاني عشر ، على ما يرويه الزبيدي شارح القاموس المحيط .

وجملة القول أن اللغة العربية ، إعراباً وبلاغة ، كانت ملكة راسخة في نفوس العرب في الجزيرة ، فلما جاء القرآن وأخرجهم من هذه الجزيرة ، إلى هذا الملك العظيم ، واختلطوا بالأعاجم وعاشوا عيشة مدنية وحضارة ، ضعفت هذه الملكة ثم فسدت وصارت اللغة تكسب بالتعلم والتعليم .